توطئة

إن الحمد لله وحده، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونتوب إليه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ونصلى ونسلم على خير أنبيائه ورسله، محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد....

فإن المراد بكلمة «توثيق» بيان مقدار الثقة بالحديث من ناحية تصحيحه أو تضعيفه، وذلك عن طريق تطبيق الأسس العلمية التي وضعها نقاد الحديث.

وذلك يعنى أننا سوف نوضح جهود العلماء الذين اعتنوا بحديث رسول الله ﷺ، وبذلوا جهدهم كى يصلوا بالحديث إلى درجة إحكام اتصاله، ونسبته إلى رسول الله ﷺ وسوف نركز على دور الإمام ابن تيمية رحمه الله في توثيق الأحاديث، وذلك عن طريق إبراز الأسس التي اعتمد عليها، وكذلك توضيح اتجاهاته خلال تطبيقه لتلك الأسس.

ولقد فضُلت استخدام كلمة «توثيق» عن كلمة «نقد»، وذلك لأني وجدت أن كلمه توثيق يدور معناها المعجمي حول معنى: الائتمان والإحكام، وهذا ما يهدُف إليه هذا البحث.

جاء في القاموس المحيط «وثَقَ بهَ كَورِثَ ثِقَةُ» وموثَقًا: ائتمنه. والوثيق: المحكم ج وُثق. ووثُق ككَرُم: صار وثيقًا، أو أخذ بالوثيقة

في أمره،أي بالثقة كتوثق.... ووثقه توثيقًا: أحكمه، وفلانًا: قال فيه إنه

ثقة، واستوثق منه: أخذ الوثيقة [١]

أما كلمة «النقد» فقد وجدتها في الأغلب تدور حول محاولة كشف العيب، ولهذا فإنه لا يليق استعمالها مع سنه رسول الله ﷺ.

فالنقد: «النقر بالإصبع في الجوز (أي ليعرف جيده من رديئه) وأن يضرب الطائر بمنقاره، أي بمنقاره في الفخ (أي ليتبين أماكن الضعف)، واختلاس النظر نحو الشيء، ولدغ الحية» [٢].

أما كلمة «متون» فهي كما هو معروف جمع «متن»، ونعني «ألفاظ الحديث التي تقوم بها المعاني»، قاله الطيبي. وقال ابن جماعة: هو ما ينتهي إليه غاية السند من الكلام، من المماتنة، وهي المباعدة في الغاية، لأنه غاية السند، أو من متنت الكبش: إذا شققت جلدة بيضته واستخرجتها فكأن المسند استخرج المتن بسنده، أو من المتن وهو ما صلب وارتفع من الأرض، لأن المسند يقويه بالسند ويرفعه إلى قائله، أو من تمتين القوس، أي شدها بالعصب، لأن المسند يقوي الحديث بمسنده. [٣]

وكل ما سبق ينتهي بنا إلى غاية واحدة، وهي أن المتن هو: نص ما أضيف إلى رسول الله ﷺ قولا، وفعلا، أو تقريرًا، أو صفة.

وأما كلمة «السنة» فنعني بها ما يعنيه علماء الحديث، وأنها: كل ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة، سواء دل ذلك على حكم شرعي

---

(١) القاموس المحيط مرتبًا على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة الطاهر أحمد الزاوي جـ ٤ ص ٥٧٣

(٢) القاموس المحيط: جـ ٤ ص ٥٧٣.

(٣) تدريب الراوي للسيوطي جـ ١ ص ٤٢ الطبع الثانية ١٩٦٦م.

أم لا، وهذا المعنى هو ما يقصده المحدثون بقولهم: حديث نبوي، لأنه «عند الإطلاق ينصرف إلى ما حدث به الرسول ﷺ في قوله وفعله، وإقراره، فإن سنته ثبتت من هذه الوجوه الثلاثة، فما قال إن كان خبرًا وجب تصديقه به، وإن كان تشريعًا إيجابًا أو تحريمًا وجب اتباعه فيه». (١)

واعلم أن كلاً من لفظ الحديث والأثر والخبر، هذه الثلاثة مترادفة عند المحدثين على معنى ما أضيف إلى النبى ﷺ، قولًا أو فعلاً أو تقريرًا أو صفةً.

ولقد أخذت هذا الموضوع للدراسة لأنه قد لفت نظري كما يستلفت نظر كل المهتمين بالدراسات الإسلامية ما يوجه إلى سنه رسول الله ﷺ من طعون، وتذكر هذه الطعون أن علماء الحديث قد اكتفوا بتوثيق للسند، دون اهتمام يُذكر بتوثيق المتن.

وإذا كانت تلك المطاعن ليست بالجديدة، فإن الملاحظ أنها تلبس في كل عصر لبوسًا جديدًا، وهذا يستدعي ردودًا تناسب العصر.

وفي عصرنا الحديث امتلأت كتب المستشرقين بهذه المطاعن، وتلقفها بعض الذين خُدعوا بها من المسلمين (٢)، الأمر الذي يستدعي إبراز دور علمائنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ في جانب توثيقهم لمتن سنه رسول الله ﷺ، كما برز دورهم في توثيق السند.

وإن علماءنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ حين تكلموا عن اضطراب الحديث أو شذوذه، أو إعلاله بالقلب، أو الغلط، أو الإدراج لم يكن ذلك كله إلا توثيقًا لمتون السنة.

كما أن كتب الفقه الإسلامى تمتلئ بنظرات الفقهاء المحدثين، التي

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ جـ ١٨ ص ٧٦.

(٢) من أمثال: أحمد أمين في كتابة «فجر الإسلام» وأبو رية في كتابة «أضواء على السنة».

تكتشف عن أصولهم التي كانوا يعتمدونها لتوثيق المتن، والتي تبرز دورهم الكبير في هذه الناحية.

ومع ذلك نقول: إن دائرة توثيق متون السنة كان لابد ان تكون أضيق من دائرة توثيق السند، وذلك لأسباب متعددة، ومن أهمها:

١. أن كل الأحاديث التي يمكن أن يطعن فيها من ناحية المتن قد طعن المحدثون في سندها، بحيث يصعب إذا لم يكن مستحيلاً أن نجد حديثًا قد توجه إلى متنه نقد معقول، دون أن يكون سنده مطعونا فيه.

٢- البحث في متن الحديث عمل صعب، لأن رسول الله ﷺ يتلقى الوحي عن الله، وأوتي جوامع الكلم، وأعطي سلطة التشريع، وأحاط من أسرار الغيب بما لم يحط به إنسان عادي«ومن هنا ضيق علماؤنا دائرة نقد المتن بمقدار ما وسعوا في دائرة نقد السند، لأن الذين يُنقد حالهم في السند رجال يجري عليهم من القوانين ما يجري على الناس جميعًا، وأما المتن فإنه كلام ينسب إلى من هو فوق البشرية في علومه، ومعارفه، واستعداداته» (١).

٣- نقد السند ليست له غاية إلا توثيق المتن، فإذا تم نقد السند، وطبقا للأسس العلمية التي وضعها علماء الحديث كان المتن وثيق الصلة بالرسول ﷺ.

ومع ذلك كله فلقد كان لعلماءنا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ – جهودهم العظيمة في توثيق متن الحديث، وبالإضافة إلى جهودهم في توثيق الحديث عن طريق السند، تلك الجهود التي كشفت عن مناهج دقيقة منضبطة، وغير متروكة للأهواء.

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي مصطفي السباعي ص **٢٧٥** الطبعة الأولى **١٣٨٠م ٩٦١ هـ**

فالإسلام له مصادر ثابتة، تستمد منها الأحكام، وهي القرآن الكريم، والسنة الثابتة عن المصطفي ﷺ، والتي تلقتها الأمة وتلقاها العلماء بالقبول، والعمل الذي كان عليه الصحابة والتابعون، لأنهم الذين طبقوا الدين عمليًا، وهم خير القرون، وإجماعهم معصوم، كما أخبرنا رسول الله ﷺ، ثم القياس الصحيح حيث إنه الميزان الذي أنزل مع القرآن ليقوم الناس بالقسط.

ولقد استمد علماء الإسلام من تلك المصادر الأربعة كثيرًا من الأصول التي يعتمدون عليها في مجال العقيده أو العمليات، ولقد لجأ ابن تيمية رحمه الله إلى تلك الأصول باعتبارها أسسًا ومعالم، لا يمكن لحديث ثبت عن الرسول ﷺ، أن يجيء بما يخالفها، لأن الشريعة لا تتضارب مصادرها، ولا يتضارب شيء وردت به السنة مع الأصول الثابتة التي استمدها العلماء من تلك المصادر.

ونتعجل فنورد نصا للإمام ابن تيمية رحمه الله يوضح لنا مدى انضباط القواعد التي احتكم إليها لتوثيق متن الحديث.

يقول ابن تيمية رحمه الله وهو يجادل الشيعة «وقد نبهنا في هذا الرد على طريق مما به يُعلم كذب ما يتعمدون عليه، غير طرق أهل الحديث، وبينا كذبهم، تارة بالعقل، وتارة بما علم من القرآن، وتارة بما عُلم بالتواتر، وتارة بما أجمع الناس كلهم عليه ومن المعلوم أن الأخبار المخالفة للقرآن والتواتر والإجماع والمخالفة للعقل يُعلم بطلانها».(١)

أما عن اختيار شخصية ابن تيمية رحمه الله لهذه الدراسة، فلقد كان من

(١) منهاج السنة لابن تيمية رحمه الله ج ٤ ص١١٢ طبعة أولى مطبعة بولاق سنة ١٣٢٢ هـ.

العوامل لهذا الاختيار أنه إمام لهذا الاتجاه الذي قوي في الفترة الأخيرة، وعرف باسم السلفية، ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن ارتباطهم بالسنة زعموا أكبر من غيرهم.

ثم إن ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ شخصية قد اختلف الناس فيها إلى حد كبير، فرأي قوم أنه «قد نصر السنة المحضة، والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات، وأمور لم يسبق إليها... (على حين) قام عليه خلق من علماء مصر والشام قيامًا لا مزيد عليه، وبدعوه، وناظروه، وكابروه» (١).

ومن طموحات هذه الدراسة أن تجلي حقيقة هذا الموقف عن طريق إبراز منهج ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في جانب توثيق متون السنة، وذلك ببيان الأسس التي اعتمد عليها في هذا التوثيق، وكذلك توضيح اتجاهاته بهذه الأسس عند التطبيق، وأيضًا مقارنة جهوده وآرائه بآراء غيره من العلماء، حتى تتضح قيمه الآراء وأحجامها، ومدى التزامها بالنصوص والأسس أو بعدها عنها.

ويطيب لنا أن نقتبس من الإمام محمد أبي زهرة قوله: «إن دراسة ذلك الإمام الجليل تعطينا صورة للفقيه وقد اتصل بالحياة و وتعلق عقله وفكره بالكتاب والسنة والهدي النبوي، والسلف الصالح، ويعالج به مشكلات الحياة الواقعة بالقسطاس المستقيم».(٢)

وهذه الدراسة تهدف إلى بيان منهج ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في توثيق متون

---

(١) العقود الدرية لابن عبدالهادي ص ١١٧ تحقيق محمد حامد الفقي مطبعة حجازي بالقاهرة سنة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٨ م

(٢) ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: حياته وعصره، وآراؤه وفقهه محمد أبو زهرة ص ٤ طبعة بدون تاريخ.

السنة ولهذا فإنها لن تستقصي كل الأحاديث التي تكلم ابن تيمية رحمه الله في متونها، وإنما سوف تكتفي بإيراد نماذج تمثل وتوضح الاتجاهات التي سار فيها عند تطبيقه لهذه الأسس.

أما عن طريقة العرض في هذا البحث، فلقد اشتملت الدراسة على تمهيد وخمسة أبواب، ويسبق ذلك توطئة، ويعقبه خاتمة.

وفي التوطئة وضحنا: المراد بعنوان الدراسة، ودوافع اختيار الموضوع، ثم خطة البحث، وطريقة العرض.

أما التمهيد فإنه يوضح نشأة ابن تيمية رحمه الله وحياته وثقافته وعصره، ويبين مكانته بين علماء الحديث، وأثره فيه، وآثاره، وذلك بإيجاز شديد.

أما الباب الأول فلقد عرض أهم أسس توثيق المتن عند ابن تيمية رحمه الله وهو العرض على ظاهر القرآن الكريم، واشتمل هذا الباب على فصلين، الفصل الأول يوضح الاتجاه الذب يوثق به ابن تيمية رحمه الله الأحاديث.

بعرضها على ظاهر القرآن الكريم، والفصل الثاني يوضح الاتجاه الذي يضعف به أحاديث عن طريق عرضها على ظاهر القرآن الكريم.

ويجيء الباب الثاني كالباب الأول مشتملاً على اتجاهين يوضحان استخدام ابن تيمية رحمه الله للأساس الثاني من أسس توثيق المتن عند ابن تيمية رحمه الله، وهو العرض على المشهور من السنة.

اما الباب الثالث فإنه يعرض للأساس الثالث من أسس توثيق المتن، وهو التوثيق عن طريق العرض على عمل الصحابة والتابعين، وعمل أهل المدينة، وعرض الفصل الأول: للتوثيق وعرض الفصل الثانى: للتضعيف، وعرض الفصل الثالث والأخير: لفتاوى الصحابة وعمل أهل المدينه، وبين

مدى حجية هذا العمل.

وجاء الباب الرابع بعنوان: العرض على القياس، وهو الأساس الرابع من أسس توثيق المتن عند ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ وعرض الفصل الأول للتوثيق، أما الفصل الثاني فأثبت فيه ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ موافقة القياس لكل ما ورد به الشرع، وفي الفصل الثالث والأخير: أثبت أن فتاوى الصحابة والمجمع عليها، وتوافق القياس.

أما الباب الخامس والأخير: فلقد عرض موقف ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ من الأساس الخامس من أسس توثيق المتن، وهو العرض على بدائِه العقول، والتاريخ، وحقائق اللغة، وما عرف من أسلوب الرسول ﷺ. وعرض الفصل الأول من هذا الباب نماذج من الحديث يوثقها ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بناء على هذا الأساس، وعرض الفصل الثاني والأخير: نماذج يضعفها ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بالعرض على هذا الأساس.

ونسأل الله التوفيق والسداد

ويشمل النقاط التالية:

١. نسب ابن تيمية رحمه الله، ولماذا لُقب بابن تيمية رحمه الله.

٢- مولده و ورحيل الأسرة إلى دمشق.

٣- شيوخه.

٤- العلوم التي اهتم بها.

٥- نبوغه الذي بدأ مبكرًا.

٦- العوامل المكونة لشخصيته.

٧- مكانته في علوم الحديث.

٨- المنهج العام لفكر ابن تيمية رحمه الله.

٩- موقف العلماء منه:

أ- بعض أقوال المادحين.

ب- بعض أقوال القادحين.

جـ- المعتدلون.

١٠- آثاره.

١١- وفاته.

١. نسبه، ولماذا لُقب بابن تيمية ؟

الإمام ابن تيمية رحمه الله هو تقي الدين أبو العباس، أحمد بن عبدالحليم ابن عبدالسلام بن عبدالله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر ابن على بن عبدالله ابن تيمية رحمه الله الحراني [١].

ولم تذكر المراجع شيئًا عن أصل ابن تيمية رحمه الله سوى أنه الحراني، ويرجع الإمام «محمد أبو زهرة» أنه لم يكن من أصل عربى فيقول: ولعله كان كرديًا، وهم قوم ذو همة ونجدة وبأس شديد، وفي أخلاقهم قوة وحدة، وأن تلك الصفات كانت واضحة جلية فيه، مع أنه نشأ في دعة العلماء، واطمئنان المفكرين، وهدوء المحققين [٢].

أما عن سبب تسميته بابن تيمية رحمه الله، فإن صاحب " العقود الدرية " يذكر لذلك سببين:

أولهما: أن جده محمد بن الخضر حج على درب تيماء، فرأي هناك طفلة اسمها تيمية، فلما رجع وجد امراته قد ولدت له بنتًا فقال: يا تيمية، فلقب بذلك.

الثاني: أن جده محمدًا كانت أمة تسمى تيمية، وكانت واعظة فنسب إليها، وعُرف بها [٣].

---

(١) العقود الدرية ص ٢ الإعلام للزركلي المجلد الأول ص ١٤٤ دار العلم للملايين بيروت.

(٢) ابن تيمية رحمه الله: حياته وعصره، وآراؤه وفقهه ص ١٨.

(٣) العقود الدرية ص ٢.

٢ - مولده، ورحيل الأسرة إلى دمشق:

وُلد ابن تيمية رحمه الله في يوم الإثنين، عاشر وقيل ثانى عشر من ربيع الأول سنة **٦٦١هـ** [١] في حران، ولكن سيل التتار تقدم ليجتاح تلك البلاد، فانتقلت الأسرة كلها، وسط ظروف عصيبة، إلى دمشق، وكان ذلك في سنة **٦٦٧هـ**.

٣ - شيوخه:

قدم ابن تيمية رحمه الله مع أهله إلى دمشق، وهو صغير، فأتاح له ذلك فرصة سماع الحديث من: ابن عبدالدايم، وابن أبي اليسر، وابن عبدان، والشيخ شمس الدين الحنبلي، والقاضي شمس الدين بن عطاء الحنفي، والشيخ جمال الدين بن الصيرفي، ومجد الدين بن عساكر، والشيخ جمال الدين البغدادي، والنجيب المقداد، وابن أبي الخير، والشرف بن القواس، وزينب بنت مكي وخلق كثير [٢].

٤ - العلوم التي اهتم بها :

اتجه ابن تيمية رحمه الله إلى الحديث الشريف، بعد حفظ القرآن الكريم يرجع ذلك إلى الوراثة والبيئة، فلقد كان في الأسرة رجال ونساء سمعوا الحديث ورووه، فجده أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم الخضر سمع الحديث من جماعة [٣].

وفي سنة **٦٥٢هـ** توفي جد ابن تيمية رحمه الله «مجد الدين» وتوفيت ابنة

---

(١) شدرات الذهب لابن العماد الحنبلي ص ٨٠، والعقود الدرية ص ٢.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٤ ص ١٣٦، ١٣٧ والعقود الدرية ٣٧٢.

(٣) دائرة المعارف للبستاني المجلد الأول ص ٤١٦، ٤١٧، طبعة بيروت ١٨٧٦م.

عمه، وزوجته «بدرة» المكناة بأم البدر قبله بيوم واحد، وكانت من رواة الحديث، وفي بني تيمية غير أم البدر نساء محدثات ثم إن أباه كانت له رياسة في مشيخة الحديث [١].

ولهذا فإنه اتجه إلى حفظ الحديث وروايته، وتلقيه عن رجاله، وسماع الكتب على المشايخ الكبار، وسماع الدواوين الكبار كمسند الإمام أحمد، وصحيح البخاري، ومسلم، وجامع الترمذي وسنن أبي داود السجستاني، والنسائي، وابن ماجة، والدار قطني، سمع كلا منها مرات عدة، وأول كتاب حفظه في الحديث: الجمع بين الصحيحين للإمام الحميدي.

يقول صاحب العقود الدرية إن شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ، وسمع مسند الإمام أحمد مرات... ومن مسموعاته معجم الطبراني [٢].

وقرأ بنفسه الكثير، وطلب الحديث، وكتب الطباق [٣]، والأثبات[٤] ولازم السماع بنفسه مدة سنتين، وقل أن سمع شيئًا إلا حفظه. [٥]

ولم ينبغ ابن تيمية رحمه الله في الحديث فقط، ولكنه صار إمامًا في التفسير

---

(١) انظر " خمسة من أعلام الفكر الإسلامى مصطفي عبدالرازق ص ١١٢ دار الكتاب العربى بيروت بدون تاريخ.

(٢) العقود الدرية لابن عبدالهادى ص ٣٧٢.

(٣) لعل المقصود بالطباق: طبقات المحدثين

(٤) ولعل المقصود بالأثبات: الشيوخ الثقات في الحديث.

(٥) البداية والنهاية ابن كثير جـ ١٤ ص ١٣٦، ١٣٧.

وما يتعلق به، عارفًا بالفقه واختلاف العلماء، والأصلين [1]، والنحو واللغة، وغير ذلك من العلوم النقلية والعقلية، وما تكلم معه فاضل في فن إلا ظن أن ذلك فنه، ورآه عارفًا به، ومتقنًا له، وأما الحديث فكان حافظًا له، مميزًا بين صحيحه وسقيمه، عارفًا برجاله، متضلعًا في ذلك [2].

وإذا كان ابن تيمية رحمه الله قد تلقى كثيرًا من العلوم على يد الشيوخ، خاصه الحديث، فإنه قد اتجه إلى التحصيل بنفسه بعد أن كبر، وشأنه في ذلك شأن كل عالم مستقل الفكر والرأي والنظر، يقرأ على الرجال القليل، ثم يعتمد على نفسه ودراسته الخاصه.

ولهذا نقول: إن من تلقى عليهم من الماضين الذين لم يشافههم أكثر كثرة كبيرة من الشيوخ الحاضرين، الذين لقيهم وشافههم[3].

كل ذلك مكن ابن تيمية رحمه الله من أن يوفق بمهارة بين نصوص الشريعة الثابتة، وبين المعقولات الصريحة، وأن يزيل ما بينهما من خلاف، وأن يحل تلك العقدة القوية التي عقدت حول أمهات الدين الاعتقادية[4].

---

(١) لعل المقصود بالأصلين: علم أصول الحديث، وعلم أصول الفقه.

(٢) العقود الدرية لابن عبدالهادي ص **٣٧٢**.

(٣) ابن تيمية رحمه الله: حياته وعصره، وآراؤه وفقهه ص **١١٨**.

(٤) ابن تيمية رحمه الله السلفي _ محمد خليل هراس ص **٥٢، ٥٣** الطبعة الأولى: **١٣٧٣**هـ - **١٩٥٢**م ولعل الشيخ محمد خليل هراس يقصد بالعقدة القوية التي عقدت حول أمهات الدين الاعتقادية: ما أثير من جدل حول الذات والصفات، والتأويل وعدم التأويل، والتوسل والشفاعة، والأخذ في الأسباب والتوكل، وأمثال ذلك.

٥ - نبوغه المبكر:

ولقد بدأ نبوغ ابن تيمية رحمه الله مبكرًا، فكان آيه في الحفظ منذ صغره، والدليل على ذلك أن الشيخ الذي أراد أن يتأكد مما قيل عن سرعة حفظه حين كان صبيًا في الكُتَّاب بدمشق أملى عليه من متون الأحاديث أحد عشر أو ثلاثة عشر حديثًا وقال له: أقرا هذا، فلم يزد على أن تأمله مرة بعد كتابته إياه، ثم دفع اللوح إلى الشيخ وقال: اسمعه علي، فقرأه عليه عرضًا كأحسن ما أنت سامع، فقال له الشيخ: يا ولدي امسح هذا ففعل، فأملى عليه عدة أسانيد انتخبها، ثم قال اقرأ هذا فنظر فيه، كما فعل أول مرة، فقام الشيخ وهو يقول: إن عاش هذا الصبي ليكونن له شأن عظيم، فإن هذا لم يُرى مثله. (١)

وكان ابن تيمية رحمه الله يحضر المدارس والمحافل في صغره، ويناظر، ويقتحم الكبار ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم، فأفتى وله تسع عشرة سنة، بل أقل، وشرع في الجمع والتأليف في ذلك الوقت. (٢)

وتوفي والد ابن تيمية رحمه الله سنة **٦٨٢**هـ، وكان صاحب كرسى في الجامع الكبير بدمشق، وكانت له مشيخة الحديث في بعض مدارسه، فتولى ابن تيمية رحمه الله التدريس بعد وفاة أبيه بسنة، فجلس مجلسه وحل محله وعلى ذلك يكون قد تولى التدريس وهو في الثانية والعشرين من عمره (٣) فجلس نظيرًا لأئمة الحديث الممتازين، كابن دقيق العيد وغيرهم من أئمة العصر الذين

---

(١) انظر القصة بكاملها في العقود الدرية ص ٤.

(٢) العقود الدرية ص ٤.

(٣) هذه رواية ابن كثير في البداية والنهاية، أما صاحب العقود الدرية فإنه يرى أنه تولى التدريس وهو في الحادية والعشرين.

كانوا يدرسون في تلك المدارس، وفي الجامع الكبير بدمشق.[1]

وليس أدل على نبوغ ابن تيمية رحمه الله من تلك المجموعة العلمية التي سجلها له التاريخ في سجل الخلود، والتي هي فريدة في بابها، وكان في نهجه فيها مستقل الفكر، ولم يحاك أحدًا ممن سبقه، وإن كان لكل ما سبق من آثار علمية دخل في تكوينه الفكري والعلمي، فهو وإن كان قد تغذى من علوم السابقين إلا أنه قد أتى بخلاصة ما انطبع في نفسه واستقام في فكره.

٦ - العوامل المكونة لشخصية ابن تيمية رحمه الله:

لقد تضافرت مجموعة من العوامل، انصهرت وتكاملت داخل ابن تيمية رحمه الله، فجعلت منه تلك الشخصية الفريدة، المتميزة، ونبرز تلك العوامل فيما يلي:

أولًا: ما وهبه الله من مواهب فريدة، وجعلت له صفات شخصية ممتازة بحيث كان صاحب شخصية رهيبة قوية، ونفس حلوة جذابة، وقلب رؤوف خافق، وعقل جبار نافذ، وإرادة قوية صارمة.

وتبرز أهم تلك المواهب الشخصية فيما يلي:

١. الحافظة القوية التي هي أساس العلم، ورأينا أن هذه الحافظة القوية كانت عنده مضرب الأمثال.

٢- العمق والتأمل، ولذلك كان من أدق العلماء، وأقدرهم على استنباط المعاني من الأحاديث، آيات القرآن الكريم.

٣- حضور البديهة، ولهذه الصفة كان خصومه يتهيبون لقاءه.

٤- الا ستقلال الفكري، وهذه كانت أبرز الصفات في تكوين علمه،

---

(١) ابن تيمية رحمه الله: حياته وعصره، آراؤه وفقهه ص ٢٩.

وشخصيته العلمية.

٥- الإخلاص في طلب الحق. والطهارة من أدران الهوى والغرض، ولهذا كان يجابه العلماء بما يوحيه فكره، وما يراه حقا، بل إنه ذهبت به جرأته إلى أن يعلن على رؤوس الأشهاد أنه لا يصح الاستغاثة بأحد من الخلق، ولا بمحمد ﷺ (١).

كما أنه كان يتفانى في الحق، ولو دافع عنه بالسيف، كما حدث في أمر قتاله للتتار، وكذلك تصدى للجهاد الفكري عن الإسلام في الداخل والخارج في عصره، وتحمل العبء بصورة لفتت إليه الأنظار وجعلته يبدو وحيدًا في الميدان.

ولقد كان يتبرأ من الأغراض والهوى والمحاسدة، والمباغضة، فما علم عنه أنه كان حاقدًا على أحد، بل إنه حين واتته الفرصة لينتقم من الذين ظلموه واستحلوا دمه عفا عنهم (٢) كما انه كان زاهدًا عن المناصب (٣).

---

(١) ابن تيمية رحمه الله: حياته وعصره، وآريؤه وفقهه ص ٧.

(٢) يقول ابن عبدالهادي في العقود الدرية ص ٢٨٢، وسمعت الشيخ تقي الدين بن تيمية رحمه الله - يذكر: أن السلطان لما جلس بالشباك، أخرج من جيبه فتاوى لبعض الحاضرين في قتله، واستفتاه في قتل بعضهم، قال: ففهمت مقصوده، وأن عنده حنقًا شديدًا عليهم، لما خلعوه، وبايعوا الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير «فشرعت في مدحهم والثناء عليهم وشكرهم، وأن هؤلاء لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك، أما أنا فهم في حل من جهتي، وسكنت ما عنده عليهم، قال: فكان القاضي زين الدين بن مخلوف قاضي المالكيه يقول بعد ذلك: ما رأينا أتقى من ابن تيمية رحمه الله، لم نبق ممكنًا في السعي فيه، فلما قدر علينا عفا عنا».

(٣) خلافا لما ذُ كر منسوبًا إلى السيوطي في هامش الكواكب الدرية، والذي يؤكده الكوثري في مقالاته ص ٣٤٠ - ٣٤٣ طبعة بدون تاريخ، وبالنسبه للذهبي، وترى أن تاريخ ابن تيمية رحمه الله لا يمكن أن يؤيد من ادعى عليه أنه كان محبًا للرياسة.

٦- فصاحته وقدرته البيانية، والتي كان فيها قدر كبير من الوراثة.

٧- الشجاعة والصبر والاحتمال.

٨- قوة الفراسة.

٩- الهيبة الشخصية، والتي هي من أهم منح الله لعباده.

ثانيًا: العلوم التي تلقاها من رجال من أمثال ابن دقيق العيد والمزي والزملكاني، الذين كانوا يدرسون الحديث دراسة فاحصة لرجال الأسانيد، ولمتون الحديث، مع موازنة المرويات بعضها ببعض أو تلك العلوم التي حصلها بنفسه من الكتب التي كانت تزخر بها المكتبات في هذا العصر، لأن الأحاديث كانت قد تجمعت ودونت باستقراء وتفحص عميق وحتى إن الإنسان ليقرأ الباب من الأبواب فيجد الأحاديث الواردة فيها مجتمعة كلها، غريبها وحسنها، وصحيحها وضعيفها مع التنبيه على مراتبها ومتوافقها ومتعارضها.(١)

ولابد أن نفترض أن التكوين الأكبر لعقل ابن تيمية رحمه الله وفكره يرجع إلى هذه المجموعة التي قرأها وفحصها واستوعبها، لأنه أتى بجديد لم يكن في شيوخه من يعرفه.

ثالثًا: طبيعة الحياة التي عاشها، ومزاياه منذ ضغره، ذلك أنه انصرف منذ صغره إلى الجد والاجتهاد، وإلى المجدي والنافع من العلوم والدراسات، لا يلهو لهو الصبيان، ولا يعبث عبثهم، ولقد تفتحت نفسه لكل ما حوله، وتزكى عقله بكل ما مر به من تجارب، فلم يكن الغلام المنقطع عن الأحياء

(١) ابن تيمية رحمه الله: حياته وعصره، وآراؤه وفقهه ص ٢٤.

والحياة، هذا مع ذاكرة حادة، وعقل متيقظ وفكر مستقيم، ونبوغ مبكر.[1]

رابعًا: طبيعة العصر الذي عاش فيه، حيث امتاز هذا العصر من الناحية السياسية والاجتماعية بكثرة الأحاديث وتواليها، وتعدد أنواعها.

فدول الإسلام قد انحلت إلى دويلات، أصبح بأسها بينها شديدًا، والصليبيون قد غزوا الإسلام في عقر داره، حتى قضى الله له من ذوي الغيرة في مصر والشام، من صد جموعهم، ولكن فلولهم بقيت تعمل عملها في مصر والشام.

وانثال التتار على بلاد الإسلام يأجوج ومأجوج من كل حدب ينسلون.

والفرق تعمل في الباطن بما يسبب انقسام الجماعة، ويجعل الخلاف أشد احتدامًا.

والأندلس في المغرب تترنح تحت ضربات الفرنج، حتى استطاعوا في النهاية القضاء على دولة الإسلام هناك من غير شفقة ولا رحمة.

أما من الناحية العلمية فقد قل الإنتاج العلمي، وركدت الأذهان وأقفل باب الاجتهاد في الأصول والفروع جميعًا، محرم الأخذ في الأصول بغير مذهب الأشعري، وفي الفروع بغير مذاهب الأئمة الأربعة، وأصبح قصارى جهد العالم أن يفهم ما قيل، من غير بحث ولا مناقشة، وعمد العلماء إلى جمع المعلومات المتعلقة بكل فن، فنظموها في سلك واحد، ألفوا فيها كتبا مطولة أحيانا، وسلكوا منهجًا في التأليف لا أثر فيه للابتكار والتجديد[2].

ولقد استفاد ابن تيمية رحمه الله من ظروف عصره، فتغذى بعناصره

---

(١) ابن تيمية رحمه الله: حياته وعصره، وآراؤه وفقهه ص ٢٠ بتصرف.

(٢) ابن تيمية رحمه الله السلفي ص ١٧.

الإيجابية، فوجهته ودفعته، وقاوم عناصره السلبية مقاومة عنيفة، وكان شأنه في ذلك شأن العالم ذي الشخصية القوية الذي يستفيد من عناصر عصره سلبًا وإيجابًا.

٧ - مكانته في علوم الحديث:

لقد سبق أن ذكرنا أن ابن تيمية رحمه الله تولى تدريس الحديث بعد وفاة أبيه سنة **٦٨٢**هـ، وكان ابن تيمية رحمه الله في الثانية والعشرين من عمره، وذكرنا أنه كان ندًا لعلماء الحديث الكبار في ذلك الوقت، ولقد أعانه على ذلك

كل ما سبق أن ذكرناه من دراسته للحديث بعد القرآن الكريم، وتلقيه عن الأعلام، مع نمو ملكاته ومواهبه، نتيجه لما درسه بنفسه من مجموعات الحديث.

ويقول ابن كثير «وأما الحديث فكان حامل رايته، حافظًا له، مميزًا بين صحيحه وسقيمه، عارفا برجاله، متضلعًا من ذلك وله تصانيف كثيرة، وتعاليق مفيدة في الأصول والفروع» (١).

ويقول ابن عبدالهادي حاكيًا عن الذهبي وله (أي لابن تيمية رحمه الله) خبرة تامة بالرجال وجرحهم وتعديلهم وطبقاتهم، ومعرفة بفنون الحديث، بالعالي والنازل، وبالصحيح والسقيم، مع حفظه لمتونه الذي انفرد به، فلا يبلغ أحد في العصر رتبته، ولا يقاربه، وهو عجب في استحضاره، واستخراج الحجج منه، وإليه المنتهي في عزوه إلى الكتب السته والمسند، بحيث يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية رحمه الله فليس بحديث، ولكن الإحاطة لله وحده، غير أنه يغترف من بحر، وغيره من الأئمة يغترفون من

(١) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٣٧.

السواقي.[١]

وفي موضع آخر ينسب إلى الذهبي أيضًا قوله عن ابن تيمية رحمه الله وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهي، وحفظه للحديث ورجاله، وصحته وسقيمه فما يلحق فيه.[٢]

أما السيوطي فيقول: ورأيت في تذكرة صاحبنا الحافظ جمال الدين، سبط[٣] ابن حجر، أربعةً تعاصروا: التقي ابن دقيق العيد، والشرف الدمياطي، والتقي بن تيمية، والجمال المزي، قال الذهبي: أعلمهم بعلل الحديث والاستنباط ابن دقيق العيد، وأعلمهم بالأنساب الدمياطي، وأحفظهم للمتون ابن تيمية رحمه الله، وأعملهم بالرجال المزي.[٤]

٨ - المنهج العام لفكر ابن تيمية رحمه الله:

يمكننا ان نجُمل السمات الخاصة التي تُشكل المنهج العام لفكر ابن تيمية رحمه الله فيما يلي:-

أ. لم يكن ابن تيمية رحمه الله يتبع الرجال على الأسماء، فليس لأحد عنده من مقام إلا الدليل من الكتاب أو السنه، او آثار السلف الصالح رضي الله عنهم -، فما

---

(١) العقود الدرية ص ٢٤، ٢٥.

(٢) العقود الدرية ص٢٣.

(٣) السبط: واحد الأسباط، وهم ولد الولد، والأسباط من بنى إسرائيل كالقبائل من العرب مختار الصحاح مادة (سبط) ص ٢٨٣ لمحمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي دار التنوير العربي - بيروت لبنان بدون تاريخ.

(٤) تدريب الراوي السيوطي جـ ٢ ص ٤٥ ٤٦ دار نشر الكتب الإسلامية لاهور باكستان الطبعة الأولى.

يجده سائرًا مع الكتاب والسنة وآثار الصحابة أيده ونادى به، وما يجده مخالفًا لهذا جاهر ببطلانه، أيا كان قائله، ومهما يكن ناصره، وسوف يتضح لنا ذلك من خلال هذه الدراسة.

ب- لا يثق بالعقل ثقه مطلقة في مقدمات الحكم على العقائد والأحكام من حيث سلامتها وعدم سلامتها.

ومن الأسباب التي دفعت ابن تيمية رحمه الله إلى ذلك أنه جاء في عصر قد عملت فيه الفتن عملها، ورأت كل فرقة أن عندها من المعقول ما ليس عند غيرها، وأن مذهبها هو الصحيح، والموافق لصريح المعقول، وغدا المسلمون بين مفتون بالعقل المضلل، أو بالهوى الخادع، أو مسيطر عليه من أصحاب الأغراض، فصاح ابن تيمية رحمه الله بالمسلمين، طالبا منهم الرجوع إلى الشريعة في مصادرها المصفاة (الكتاب والسنة) والاعتداد بالنص الشرعي، وبعث العقل على أن يعمل في فهم النص لا في مورد النص.

ج- يرى ابن تيمية رحمه الله أن الشريعة أصلها القرآن الكريم، وأن محمدًا ﷺ قد فسر القرآن تفسيرًا كاملاً، وأن الذين تلقوا ذلك التفسير والتوضيح من رسول الله ﷺ، ثم قاموا بتبليغه للأجيال هم الصحابة رضوان الله تبارك وتعالى عليهم، فهم الذين تلقوا شرع الله من الرسول ﷺ وهم الذين حفظوا مقالته ووعوها، ونقلوها كما سمعوها وفهموها وأخذها عنهم التابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين.

د- لم يكن ابن تيمية رحمه الله متعصبًا في تفكيره، فلم يسيطر عليه فكر معين يجمد عليه ويتعصب له، بل كان موقفه إلى حد كبير موقف السلف الصالح، الذين كان الواحد منهم يقول: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

يقول ابن تيمية رحمه الله وفي كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة في ترك العمل بالحديث لم نطلع نحن عليها، فإن مدارك العلم واسعة، ولم نطلع نحن على جميع ما في بواطن العلماء، والعالم قد يبدي حجته وقد لا يبديها، وإن أبداها فقد تبلغنا وقد لا تبلغنا، وإن بلغتنا فقد ندرك موضع احتجاجه وقد لا ندركه، سواء كانت الحجة صوابًا في نفس الأمر أم لا. (١)

ونحن لا نوافق من وصف ابن تيمية رحمه الله بالتناقض في هذه الناحية فقال ولابن تيمية رحمه الله في بعض الأحايين تسامح في أمر الخلافات الدينية يتسع لحرية التفكير خير اتساع، ثم تدركه حريه الجدل فينقض من حرية التفكير ما بنى. (٢)

ويستشهد الباحث للتدليل على حدة الجدل عند ابن تيمية رحمه الله بموقف الأخير من ابن عربي والصدر الرومي، ونعلل لعدم موافقتنا على هذا بأن ابن تيمية رحمه الله كان متسامحًا ما اتسع المجال للتسامح، وكان هناك وجه يلتمس به عذرًا للطرف الآخر، أما حين يسند باب الأعذار فلا تسامح ولا مهاونة، لان الأمور المعلومة من دين المسلمين لابد أن يكون الجواب عما يعارضها جوابًا قاطعًا لا شبهة فيه، وبخلاف ما يسلكه من أهل الكلام، فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفي بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدر وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم اليقيني. (٣)

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية رحمه الله جـ٢٠ ص ٢٥٠.

(٢) خمسه من أعلام الفكر الإسلامي ص ١٢٢.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية رحمه الله جـ ٢٠ ص ١٦٤ - ١٦٥.

٩ - موقف العلماء من ابن تيمية رحمه الله:

لقد اختصم العلماء في ابن تيمية رحمه الله اختصامًا شديدًا، واشتد اختلافهم حوله، بل لعل تاريخ الإسلام في تلك الفترة لم يشهد شخصية اختلف فيها الناس اختلافهم في ابن تيمية رحمه الله، أو كان لها من كثرة الخصوم والأنصار ما كان له، فهو من وقت أن ظهر عالمًا بين العلماء، ومرجعًا يُرجع إليه في الإفتاء، والناس مختلفون في شأنه بين مادح وقادح، ولا يزال ذلك الاختلاف إلى يومنا هذا.

فهو في نظر فريق من الناس «شيخ الإسلام، وقدوة الأنام وأحد المجددين للدين، وزعيم النهضة الإسلامية الحديثة، قمع البدعة وأظهر السنة، ورجع بالناس إلى طريقة السلف الأول من الصحابة والتابعين، وحارب كل غريب مستحدث، وخلص الدين مما لحق به من أضرار، وشابه من فساد، ورسم المنهج للمصلحين من بعده، يقتفون أثره، ويترسمون خطاه، ونهض لكل فرقة من فرق الزيغ والضلال يبطل أقوالها، ويزيف آراءها». (١)

بل إن بعض من غالى في تقديره رفعه إلى مرتبة فوق كبار أئمه الفقهاء، فتجاوز به أقدار الأئمة الأعلام كأبي حنيفة ومالك والشافعي والليث (٢).

ومن هؤلاء الذين يمدحونه تلميذه ابن قيم الجوزية، وابن قدامة والصرصري الصوفي، وإبراهيم الكوراني، وعلي القاري الهروي ومحمد الألوسي وغيرهم.

وفي الجانب المقابل نجد فريقًا ينظر إلى ابن تيمية رحمه الله على أنه لم يصل

---

(١) ابن تيمية رحمه الله السلفي ص ٥

(٢) ابن تيمية رحمه الله: حياته وعصره، وآراؤه وفقهه ص ٥.

إلى مرتبة الاجتهاد، وما اجتهد فيه فقد تجاوز فيه طوره، وتعدى حده.

ومنهم من كفره حاسبًا أنه خلع الربقة، وانطلق من قيود السالفين وغدا عدوًا للدين، فهو ضال مُضل، وكافر ملحد يشبه الله بخلقه، ويصفه بأنه مستوٍ على عرشه وأنه ينزل إلى سماء الدنيا، وأنه يتكلم بحرف وصوت وهو مع ذلك ينقص من قدر الرسول ﷺ فيمنع التوسل والاستغاثة به، ويحرم قصد قبره للزيارة، ويجترئ على أصحابه، فيخرج على إجماعهم، ويتناول أقوالهم بالنقد والتجريح [1].

ومن بين الذين يرمونه بالزندقة على أقل تقدير ابن بطوطة، وابن حجر الهيتمي، وتقي الدين السبكي وابنه عبدالوهاب وعز الدين ابن جماعة، وأبو حيان الظاهري الأندلسي وغيرهم.

ولا يزال الخلاف في ابن تيمية رحمه الله باقيًا إلى يومنا هذا، فلم يرحمه يوسف النبهاني في كتابه «شواهد الحق على الاستغاثة بسيد الخلق» ورد ذلك الكتاب أبو المعالي الشافعي السلامي في كتابه «غايات الأماني في الرد على النبهاني» [2].

بعض أقوال مادحيه:

يقول أبو الحجاج المزي عنه: " ما رأيت مثله و ولا رأي هو مثل نفسه، وما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله، ولا أتبع لهم منه"[3].

ويقول العلامة كمال الدين بن الزملكاني: " كان إذا سُئل عن فن من

---

(١) ابن تيمية رحمه الله السلفي ص ٥، ٦.

(٢) يرجع إلى دائرة المعارف الإسلامية المجلد الأول مادة ابن تيمية رحمه الله ص ١١٣.

(٣) العقود الدرية ص ٧.

العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحدًا لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه مالم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحدًا فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم سواء أكان من علوم الشرع أم غيرها إلا فاق فيه أهله، والمنسوبين: إليه "[1]

ويقول عماد الدين الواسطي " فوالله، ثم والله. ثم والله، لم يُر تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية رحمه الله علمًا وعملاً وحالًا، وخلقًا، واتباعًا، وكرمًا وحلمًا، وقيامًا في حق الله عند انتهاك حرماته، أصدق الناس عقدًا، وأصحهم علمًا وعزمًا، وأنقذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همة، وأسخاهم كفًا، وأكملهم اتباعًا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وما رأينا في عصرنا هذا من تُستجلى النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة [2].

بعض أقوال القادحين:

يقول ابن حجر الهيتمي «وأياك أن تصغي إلى ما في كتب ابن تيمية رحمه الله، وتلميذه ابن القيم وغيرهما ممن اتخذ إلهه هواه، وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة، فمن يهديه من بعد الله، وكيف تجاوز هؤلاء الملحدون الحدود، وتعدوا الرسوم، وخرقوا سياج

(١) العقود الدرية ص ٧ أيضًا وأقرأ أقوالًا لمادحين آخرين في هذا الكتاب من ص ٧ إلى ص ١٠.

(٢) شذرات الذهب ص ٨٣، أقرأ ايضًا في هذا الكتاب أقولًا لمادحين آخرين من ص ٨٠ إلى ص ٨٤.

الشريعة، والحقيقة، فظنوا بذلك أنهم على هدى من ربهم، وليسوا كذلك، بل هم أسوأ الضلال وأقبح الخصال، وأبلغ المقت والخسران، وأنهي الكذب والبهتان، فخذل الله تبعتهم، وطهر الأرض من أمثالهم» (١).

ويقول تقي الدين السبكى: «فإنه لما أحدث ابن تيمية رحمه الله ما أحدث في أصول العقائد، ونقض من دعائم الإسلام الأركان والمعاقد و بعد أن كان مسترًا بتبعية الكتاب والسنة، ومظهرًا أنه داعٍ إلى الحق، هادٍ إلى الجنة، فخرج عن الاتباع إلى الابتداع، وشذ عن جماعة المسلمين، بمخالفة الإجماع... فلم يدخل في فرقة من الفرق الثلاثة والسبعين التي افترقت عليها الأمة، ولا وقفت به مع أمة من الأمم همة، وكل ذلك، وإن كان كفرًا شنيعًا، مما تقل جملته بالنسبة إلى ما أحدث في الفروع»(٢).

ويقول الشيخ مصطفي عبدالرازق: «وإذا كان للعلوم الفلسفية أثرها في تفكير شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فإن تفكيره أحيانًا لا يستوفي التمحيص الفلسفي، ومن أمثلة ذلك ما يذكره في كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (حيث يقول): «فإني أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من منافع، وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها، وأعرف من يخاطبهم الحجر والشجر، وتقول: هنيئًا لك يا ولي الله، فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك»(٣).

---

(١) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص ٢٠٥، ٢٠٦ الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ مصطفي البابي الحلبي.

(٢) الدرة المضية في الرد على ابن تيمية رحمه الله تقي الدين السبكي ص ٢٢٦ القدس دمشق سنة ٣٤٧ هـ.

(٣) خمسة من أعلام الفكر الإسلامي ص ١٢١.

ونعتقد أنه لا مجال كما أنه لا داعي هنا لمناقشة تلك الأقوال، ذلك لأن مهمة هذه الدراسة إبراز موقف ابن تيمية رحمه الله من النص، ومدى التزامه به في آرائه التي اتهم بسببها بما اتهم به.

كما أنه من المتوقع أن يكون لهذا العالم الجليل حساد من بين العلماء، فالله تعالى قد حباه من الفضل ما استوجب به الحسد من الذين لم يستطيعوا مجاراته في أسباب فضله، وإذا لم يحسد مثل ابن تيمية رحمه الله على ما وصل إليه فإن الحسد يزول من الوجود.

إن اختلاف الناس في شأن ابن تيمية رحمه الله لدليل على كبره في نفسه، وعلى عبقريته التي استوجبت لفت الأنظار، فإن «المشاهد قديمًا وحديثًا أن الرجل الذي يختلف الناس في شأنه، بين إعلاء وإهواء، لا بد أن يكون رجلاً كبيرًا في ذات نفسه، عظيمًا في خاصة أمره، له عبقرية استدعت الأنظار، واتجهت إليها الأبصار، فيكون له الولي الموالي، والعدو المتربص المؤاخذ، الذي يتبع الهفوة، ويحصي السقطات» (١).

المعتدلون:

ويحكي الشيخ محمد أبو زهرة أن الذهبي كان من المعتدلين بين المادحين والقادحين، ويستشهد بقوله: «ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير فيه، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني إلى التغالي فيه، وقد أوذيت من الفريقين، ومن أصحابه وأعدائه، وانا لا أعتقد فيه عصمة، بل أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية، فإنه كان مع سعة علمه، وفرط شجاعته، وسيلان ذهنه، وتعظيمه لحرمات الدين بشرًا من البشر، تعتريه حدة في البحث وغضب وصدمة

(١) ابن تيمية رحمه الله: حياته وعصره، وآراؤه وفقهه ص ٥.

للخصوم، تزرع له عداوة في النفوس، ولولا ذلك لكان كلمة إجماع، فإن كبارهم خاضعون لعلومه، معترفون بأنه بحر لا ساحل له، وكنز ليس له نظير، ولكنهم ينقمون عليه أخلاقًا وأفعالًا، وكل يؤخذ من قوله ويترك».(١)

ويتضح من النص السابق أن الذهبي يرى أن حدة ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ خلال النقاش هي التي أوغرت صدور العلماء عليه، وأوجدت له أعداء، وأنه لولا تلك الحدة لكان محل إجماع، ونحن نخالفة في ذلك، زاعمين أن الحدة لم توجد الخلاف، بل الخلاف بينه وبين غيره كان أمرًا لابد منه ولكن الذي اختصت الحدة بإيجاده، وكانت العامل الوحيد في ظهوره هو العداوة الظاهرة، وإرادة الأذى من غير حريجة مانعة.

ونختم تلك النقطة بقول ابن كثير «وبالجملة كان رَحِمَهُ اللَّهُ – من كبار العلماء، وممن يخطئ ويصيب، ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه نقطة في بحر لجي، وخطؤه أيضا مغفور له». (٢)

١٠ - آثاره:

لقد كان ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مشتهرًا بسرعة الكتابة، وكثرتها فكان «يكتب في اليوم والليل من التفسير أو من الفقه أو من الأصلين أو من الرد على الفلاسفة الأوائل نحو من أربعة كراريس أو يزيد، وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلد» (٣).

ومع أن صاحب العقود الدرية يقول: «ولقد رأيت من خرق العادة في

---

(١) ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: حياته وعصره، وآراؤه وفقهه ص **٥٣**.

(٢) البداية والنهاية جـ **٣** ص **١٣٩، ١٤٠**.

(٣) العقود الدرية ص **٢٥**.

حفظ كتبه وجمعها، وإصلاح ما فسد منها، ورد ما ذهب منها ما لو ذكرته لكان عجبًا، يعلم به كل منصف أن لله عناية به وبكلامه، لأنه يذبُ عن سنة نبيه ﷺ تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» (١).

نقول مع ذلك فنحن لا نشك أن قدرًا كبيرًا مما كتب ابن تيمية رحمه الله قد ضاع، فمعظم كتبه كانت إملاءات ورسائل، ثم إن المحن التي تعرض لها، والحجر الذي فُرض على أفكاره، والتضييق الذي عومل به أتباعه و كل ذلك يجعلنا نتوقع ضياع الكثير من آثار ابن تيمية رحمه الله.

ويؤيد ذلك أن الموجود من مؤلفاته لا ينطبق عليه قول ابن عبدالهادي «ولا أعلم أحدًا من متقدمي الأمة، ولا متأخريها جمع مثل ما جمع، ولا صنف نحو ما صنف، ولا قريبًا من ذلك» (٢).

ويوجد لابن تيمية رحمه الله أربعون حديثًا رواها عن طريق متصلة الإسناد إلى الرسول ﷺ (٣).

وما نعلم له مؤلفًا خاصًا بالحديث وعلومه، اللهم إلا الجزء الثامن عشر من مجموع الفتاوى، التي بلغ عدد أجزائها أربعة وثلاثين جزءًا غير الفهارس.

ومع أن تلك المجموعة لم تتخصص في الحديث إلا أنها مع كتبه الأخرى مثل: منهاج السنة، ودرء التعارض تشتمل على كثير من الأحاديث، وتشتمل أيضًا على أصول توثيق الحديث إما من ناحية سنده وإما من ناحية متنه، الأمر الذي يكشف عن المكانة العظيمة لابن تيمية رحمه الله باعتباره عالمًا من علماء

(١) العقود الدرية ص ١٦.

(٢) العقود الدرية ص ٢٦.

(٣) مجموع الفتاوى جـ ٨ ص ٧٦ حتى ص ١٢١.

الحديث يستحق أن تخصص له دراسة أوسع كي توفي كل تلك الجوانب.

وإذا كانت تلك آثار ابن تيمية رحمه الله من الكتب المجموعة فإن آثاره التي برزت من خلال تلاميذه وأصدقائه وأتباعه أكبر وأظهر، بحيث استطاعت أن تبرز اتجاهًا خاصًا بها عرف باسم «السلفية» وأثر في حركات الإصلاح وتكوين الاتجاهات.

فمذهب الوهابيين يتصل بسبب إلى ابن تيمية رحمه الله، ونزعة الإصلاح الديني عند الشيخ محمد عبده تتصل بسبب أيضًا إلى ابن تيمية رحمه الله.

وما زالت أفكار ابن تيمية رحمه الله مثار جدل، وأخذ ورد حتى الآن.. ولعل تلك الدراسة بعض هذه الآثار.

١١ - وفاته:

توفي ابن تيمية رحمه الله في ليلة الإثنين، المتممة للعشرين من ذي القعدة سنه **٧٢٨** هـ ثمان وعشرين وسبعمائة، بقلعة دمشق التي كان محبوسًا بها، وكان يومه مشهودًا، ضاق بجنازته الطريق وجاءها المسلمون من كل فج عميق.

رحم الله الإمام ابن تيمية رحمه الله، وجزاه أفضل ما يجزي العلماء العاملين، المخلصين.

❁❁❁